نظرية التلقي

تقديم

لقد أهملت الدراسات النقدية الأدبية لمدة طويلة عنصر القارئ وأهميته في قيام الفعل التواصلي قبل طهور نظرية التلقي. وقد تركز الاهتمام على النص ومرسله، وهُمِّش المرسل إليه، وأهمل طويلاً إذ إن « علامات السارد تبدو لأول وهلة أكثر قابلية للرؤية وأكثر عدداًمن علامات القارئ (إن السرد يستعمل في الغالب ضمير المتكلم أكثر مما يستعمل ضمير المخاطب) كما أن علامات القارئ في الواقع هي أكثر مخادعة من علامات السارد...»[1].

وقد عرفنا مع هذه الدراسات القليلة التي أولت الاهتمام بهذا العنصر، الالتباس والخلط في توظيف وتحديد مصطلح القارئ، حيث تداخلت المفاهيم واختلطت الرؤية بين الباحثين، ولم توضع الحدود الفاصلة بين مفهوم المسرود له•والقارئ والمخاطب والمستمع والقارئ المجرد.

ويتبيّن هذا عند رولان بارت الذي يرى أنه " لا يمكن أن يوجد سرد بدون سارد وبدون مستمع أو قارئ "[2]. يتضح أن المستمع أو القارئ يلعبان دور المسرود له في العملية السردية. وتظهر صورة القارئ الخيالي كلما ظهرت صورة السارد، وكلاهما تلازم الأخرى. لكن ذهب " جيرالد برانس " من خلال دراسته غلى تحديد مفهوم المسرود له، وتفريقه عن القارئ حيث يقول:" إن قارئ النص التخيلي، سواء اكان نثراً أم شعراً، ينبغي ألا يُظَن هو المروي عليه. فالأول حقيقي والآخر تخيلي. وإذا ما ظهر أن قارئاً يحمل شبهاً مدهشاً بالمروي عليه، فإن هذا استثناء وليس قاعدة "[3].

---

[1] ـ رولان بارت، التحليل البنيوي للسرد، تر: حسن بحراوي وآخرون، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، ع: 9/8، المغرب 1988، ص 21,

• لقد أنجز الباحث " علي عبيد " دراسة تحت عنوان " المروي له في الرواية العربية "، وقد أشار إلى إشكالية الخلط والتداخل في المصطلحات، وكذا عدم الاهتمام بهذا العنصر الهام في الإرسالية البشرية بحيث يقول:" لم يحظ المروي له في السرديات بالعناية التي لقيتها سائر أعوان السرد، فما تسنى لنا العثور عليهمن معلومات عند هذا العون قليل جدا لا يزيد عن بعض مقالات تعريفية في الغالب أو إشارات اقتضاها الحديث عن الراوي..."(يراجع علي عبيد، المروي له في الرواية العربية، دار محمد علي، الطبعة الأولى، تونس 2003، ص 9).

[2] ـ رولان بارت، التحليل البنيوي للسرد، ص 21.

[3] ـ جيرالد برانس، مقدمة لدراسة المروي عليه، ضمن نقد استجابة القارئ، تر: حسن ناظم، علي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، 1999، ص 54.

وتتحدد هذه المفاهيم، ويضع " جاب لنتفلت " الفروق الدقيقة بينها. ويتبين لنا أن المؤلف الواقعي والقارئ الواقعي يتواجدان خارج النص، بينما ينتمي المؤلف المجرد والقارئ المجرد إلى العمل الأدبي، لكن دون أن يكونا مشخصين فيه مباشرة، لأنهما يعبران عن نفسيهما أبداً بشكل مباشر أو صريح. ويمثل المؤلف المجرد المعنى العميق للعمل الأدبي، أي دلالته الإجمالية، في حين يعمل القارئ المجرد كصورة للمرسل إليه المفترض في العمل الأدبي. ومن جهة ثانية كصورة للمتلقي المثالي القادر على تحقيق المعنى ضمن قراءة فعلية[4].

هكذا إذن، فقد شكل موضوع " القارئ " تناقضات كثيرة، ووجهات نظر مختلفة بين الباحثين حول مسألة تحديده وتبيان وظيفته في العملية التواصلية. وهذا ما حاول أيزر توضيحه من خلال تحديده للقارئ الضمني.

- **القارئ الضمني:**

يدرس " أيزر " مفهوم القارئ الضمني• (lecteur implicite)، ويعتبره أهم الأسس الإجرائية لوصف العلاقة التفاعلية بين النص والقارئ، وهو " بنية نصية تتوقع وجود متلق دون أن تحدده بالضرورة، وهو مفهوم يبني الدور الذي يتخذه كل متلق مسبقاً، وهو ما يصدق حتى حين تعمد النصوص إلى تجاهل متلقيها المحتملأو إقصائه. لذا فالقارئ الضمني شبكة من البنى المثيرة للاستجابة، مما يدفع القارئ لفهم النص"[5]. يُفهَم من هذا أن القارئ الضمني•لا يتجسد خارج النص، بل تترسخ جذوره داخل النص، وهو معنى لا يمكن مطابقته تماماً مع القارئ الحقيقي الذي يستحضر أساساً في دراسات تاريخ

---

[4]- Voir : JaapLintvelt, Essai de Typologie Narrative « le point de vue », Librairie José – corti, Paris 1981, pp : 17 - 27

● يخصص " أيزر " كتاب يحمل نفس الاسم " القارئ الضمني "(theimpliedReader). ويضم مقالاته عن فن القص النثري.

[5] ـ فولفجانج أيسر، فعل القراءة، ص 40.

● يشير روبرت هولب إلى أن " أيزر" قد استعار، ونسخ هذا المفهوم عن " واين بوث " في مفهومه للمؤلف الضمني على نحو ما عرضه بتوسع في كتابه " بلاغة الفن القصصي ".(يراجع: روبرت هولب، نظرية التلقي، ص: 136).

ويستنتج " واين بوث " (Waune Booth) بأن:" المؤلف الضمني مختلف دوماً عن الإنسان الحقيقي ـ مهما تكن الصورة التي يمكننا تكوينها عن هذا الأخير ـ لأن الإنسان الحقيقي حين يخلق عمله يخلق ترجمة سامية لشخصه. فكل رواية جديدة تقنعنا بوجود " مؤلف " نؤوله كنوع من " الأنا الثانية " وغالبا ما تكون هذه الأنا الثانية ترجمة خالصة في منتهى الصفاء والجودة، ترجمة لحياة لا يسع أي إنسان أن يحياها. ويتشكل المؤلف الضمني في حين تكوّن عمله الإبداعي، وهو لا يتدخل بطريقة مباشرة وصريحة في عمله كذات متلفظة، بل يمكنه فقط أن يختفي وراء الخطاب الإيديولوجي للسارد الخيالي، ولا يكون المؤلف الضمني في هذه الحالة هو، من يتكلم بل السارد، بالإضافةإلى ذلك يجب أن ندرك أن الموقف الإيديولوجي للمؤلف الضمني حتى في حالة تحدث السارد بلسانه لا يعكسه إلا جزئياً الخطاب الصريح للسارد، مما يعني ضرورة تفادي المطابقة بين هذين المستويين المختلفين في العمل الأدبي " (Voir : Wayne Booth, Distance et point de vue, in poétique du récit, ed du Seuil, 1977, pp 92 - 94).

الاستجابة الجمالية، أي عندما يركز الاهتمام على الطريقة التي يتلقى بها جمهور معيّن من القراء العمل الأدبي. ومهما كانت الأحلام التي قد تصدر على العمل، فإنها ستعكس مختلف توجهات ومواقف ذلك الجمهور ومعاييره، إذ يمكن القول بأن الأدب يعكس القوانين والسَّنن التي توجّه هذه الأحكام. ويتحدد هذا خاصة مع القراء باختلاف فتراتهم التاريخية•، وحقبهم الزمنية، حيث تكون أحكامهم عبارة عن ترجمة مباشرة للمواقف والأذواق التي سادت في مجتمعاتهم[6].

ويضع " أيزر" بالإضافة إلى القارئ المعاصر . وهو الحقيقي والتاريخي مستخلص من الوثائق الموجودة . ما يسميه بالقارئ الافتراضي والمتمثل في القارئ المثالي• الذي هو تخييل محض، وعلى خلا ف القارئ المعاصر فهو كائن تخييلي بحت، فليس له أساس في الواقع[7].

ويمثل وضعية تواصلية مستحيلة، لأن القارئ أياً كان، وحتى المؤلف نفسه كقارئ لنصه الخاص، لن يتمكن أبداً من استنفاذ كل الإمكانات الدلالية التي ينطوي عليها النص، وأيضاً لأن معاني النص ودلالاته العميقة لا يمكن أن تتجلى دفعة واحدة، بل تظهر بكيفية انتقائية حسب الأفق التاريخي الذي يحكم تلقي النص وعمليات بناء معناه الكامن في كل مرة، وبالتالي فوصول القارئ إلى التحكم في كل معاني النص الممكنة أقرب إلى المثالية منه إلى الواقع[8]. وبهذا فإن مثالية هذا المفهوم تجعله عاجزاً عن توفير المعطيات الضرورية التي تسمح لنا بفهم الآليات التي تتحقق بها عملية بناء المعنى باعتبارها عملية موضوعية وملموسة تتم بين النص الأدبي والقارئ.

ويبقى أن نتساءل، هنا، عن جدوى إشارة إيزر إلى هذا النوع من القارئ المثالي، وهو متيقن بعدم وجوده من الناحية الموضوعية. كما تفتقد هذه المعطيات التنظيرية إلى التجسيد على مستوى النصوص الأدبية، مما يصعّب الأمور ويعقدها أكثر على الباحث.

● يوافق " أيزر" ما ذهب إليه " ياوس " في جماليات التلقي، ويتبيّن ذلك معنا في الفصل الثالث من البحث.

1- يراجع فولفجانج أيسر، فعل القراءة، ص 34.

● يضع أمبرطو إيكو مفهوم " القارئ النموذجي " ويرى أن النص يفترض قارئه كشرط حتمي لتحقيق فعله، وتنشيطه. وبالتالي فهو استراتيجية نصية للمؤلف.(يراجع أمبرطو إيكو، القارئ النموذجي، تر: أحمد بوحسن، مجلة آفاق، ص 141)

[7] - فولغانغإيزر، فعل القراءة، ص 34.

[8] - Voir, W. Iser, l'acte de lecture, pp 62 – 64.لاة

● أجرت الباحثة نبيلة إبراهيم حواراً تسأل فيه إيزر وتقول: من ذا الذي يحكم على النص بصفة عامة ؟ يجيب:" إن الإجابة عن هذا السؤال لا يختلف فيها اثنان، فالذي يقوّم النص هو القارئ المستوعب له. وهذا يعني أن القارئ شريك للمؤلف في تشكيل المعنى. وهو شريك مشروع، لأن النص لم يكتب إلا من أجله "(يراجع نبيلة إبراهيم، فن القص، ص 52).